الشهد وألذ من النوم بعد طول السهد في كل معنى غريب وشرح عجيب" (تهذيب تاريخ ابن عساكر 2/401).

وإذا كان أسامة قد احتل هذه المنزلة الرفيعة التي يستحقها في نظر معاصريه، فإن للمحدثين آراء مماثلة في الرجل، ولعل أشهرها ما جاء في مقدمة كتاب (الاعتبار) للدكتور (فيليب حتي) الذي يقول: "عاش أسامة شهماً فارساً، وهاجر مجاهداً مقاتلاً، ولمع أديباً وشاعراً وتلهى صياداً، وقضى الكثير من سنيه جواباً، نشأ على جوار العاصي قرب حماة وصرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة، وغالب سني كهولته في الدار الأتابكية بالموصل وفي حصن كيفا على دجلة. زار بيت المقدس في فلسطين. وحج إلى الحرمين، وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية من مدنية ودينية عاشر نور الدين وتصيد مع زنكي، وتعرف شخصياً ببوهمند وتنكرد وفولك من الإفرنج الصليبيين.

آخر الإفرنج -ولا سيما الفرسان منهم- في حين السلم. وما قاتلهم في حال الحرب.

لم يشهد القتال في شيزر وحماه مدن سورية الشمالية فقط بل في عسقلان وبيت جبريل من أعمال فلسطين، وفي شبه جزيرة سيناء ومصر وفي ديار بكر والموصل، فلا غرو أن أصبح اسمه في التواريخ الإسلامية مرادفاً للبطولة.

ولو أن أسامة عاش اليوم لكان بلا ريب عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي، ولكان بيته (صالوناً) للأدب بدمشق. ولراسل -الهلال- والمقطم- ولنالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت. ولكان بلا تردد في أثناء الحرب العظمى ديون فرقة من المتطوعة تولى قيادتها بنفسه" (مقدمة كتاب الاعتبار).

هذا هو الأمير مجد الدين مؤيد الدولة (أسامة بن منقذ) بطل شيزر وفارس الحروب الصليبية، وأمير السيف والبيان، وقد جهدنا في مقالنا هذا لإعطاء صورة واضحة عنه فإن أفلحنا فالفضل يعود لشخصيته هو، وإن أخفقنا وأخطأنا التوفيق، فحسبنا الله ونعم الوكيل وسلام عليه في الخالدين.

□■□■